﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

والحق كما أوضحت من قبل لا يقتحم على العباد أمورهم ولكنه يعرض عليهم أمر الإيمان به ، فإن آمنوا فهذا الإيمان يقتضى الموافقة على منهجه ، ولذلك فالمؤمن يشترك بعقيدته فى الإيمان بما كتب الله عليه . إن المؤمن هو من ارتضى الله إلهاً ومشرعاً ، فحين يكتب الله على المؤمن أمراً ، فالمؤمن قد اشترك فى كتابة هذا الأمر بمجرد إعلانه للإيمان . أما الكافر بالحق فلم يقتحم الله عليه اختياره للكفر ، لذلك لم يكتب عليه الحق إلا أمراً واحداً هو العذاب فى الآخرة .

فالله لا يكلف إلا من آمن به وأحبه وآمن بكل صفات الجلال والكمال فيه . ولذلك فالتكليف الإيمانى شرف خص به الله المحبين المؤمنين به ، ولو فطن الكفار إلى أن الله أهملهم لأنهم لم يؤمنوا به لسارعوا إلى الإيمان ، ولرأوا اعتزاز كل مؤمن بتكليف الله له . إن المؤمن يرى التكليف خضوعا لمشيئة الله . والخضوع لمشيئة الله يعنى الحب . ومادام الحب قد قام بين العبد والرب فإن الحق يريد أن يديم هذا الحب ، لذلك كانت التكاليف هى مواصلة للحب بين العبد والرب .

إن العبد يحب الرب بالإيمان ، والرب يحب العبد بالتكليف ، والتكليف مرتبة أعلى من إيمان العبد ، فإيمان العبد بالله لا ينفع الله ، ولكن تكاليف الله للعبد ينتفع بها العبد . إن المؤمن عليه أن يفطن إلى عزة التكليف من الله ، فليس التكليف ذلاً ينزله الحق بعباده المؤمنين ، إنما هو عزة يريدها الله لعباده المؤمنين ، هكذا قول الحق : « كتب عليكم » إنها أمر مشترك بين العبد والرب . إن الكتابة هنا أمر مشترك بين الحق الذى أنزل التكليف وبين العبد الذى آمن بالتكليف .

والحق يورد هنا أمراً يخص الوصية فيقول سبحانه :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهنا نجد شرطين : الشرط الأول : يبدأ بـ « إذا » وهى للأمر المتحقق وهو حدوث الفعل . والموت أمر حتمى بالنسبة لكل عبد ، لذلك جاء الحق بهذا الأمر بشرط هو « إذا » ، فهى أداة لشرط وظرف لحدث . والموت هو أمر محقق إلا أن أحداً لا يعرف ميعاده .

والشرط الثانى يبدأ بـ « إن » وهى أداة شرط نقولها فى الأمر الذى يحتمل الشك ؛ فقد يترك الإنسان بعد الموت ثروة وقد لا يترك شيئا ، ولذلك فإن الحق يأمر العبد بالوصية خيراً له لماذا ؟ لأن الحق يريد أن يشرع للاستطراق الجماعى ، فبعد أن يوصى الحق عباده بأن يضربوا فى الحياة ضرباً يوسع رزقهم ليتسع لهم ، ويفيض عن حاجتهم ، فهذا الفائض هو الخير ، والخير فى هذا المجال يختلف من إنسان لآخر ومن زمن لآخر .

فعندما كان يترك العبد عشرة جنيهات فى الزمن القديم كان لهذا المبلغ قيمة ، أما عندما يترك عبد آخر ألف جنيه فى هذه الأيام فقد تكون محسوبة عند البعض بأنها قليل من الخير ، إذن فالخير يُقدر فى كل أمر بزمانه ، ولذلك لم يربطه الله برقم . إننا فى مصر - مثلاً - كنا نصرف الجنيه الورقى بجنيه من الذهب ويفيض منه قرشان ونصف قرش ؛ أما الآن فالجنيه الذهبى يساوى أكثر من مائتين وخمسين جنيها ؛ لأن رصيد الجنيه المصرى فى الزمن القديم كان عالياً . أما الآن فالنقد المتداول قد فاق الرصيد الذهبى ، لذلك صار الجنيه الذهبى أغلى بكثير جداً من الجنيه الورقى .

ولأن الإله الحق يريد بالناس الخير لم يحدد قدر الخير أو قيمته ، وعندما يحضر الموت الإنسان الذى عنده فائض من الخير لابد أن يوصى من هذا الخير . ولنا أن

نلحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى عن انتظار لحظة الموت ليقول الإنسان وصيته ، أو ليبلغ أسرته بالديون التى عليه ، لأن الإنسان لحظة الموت قد لا يفكر فى مثل هذه الأمور . ولذلك فعلينا أن نفهم أن الحق ينبهنا إلى أن يكتب الإنسان ما له وما عليه فى أثناء حياته . فيقول ويكتب وصيته التى تنفذ من بعد حياته . يقول المؤمن : إذا حضرنى الموت فلوالدى كذا وللأقربين كذا .

أى أن المؤمن مأمور بأن يكتب وصيته وهو صحيح ، ولا ينتظر وقت حدوث الموت ليقول هذه الوصية . والحق يوصى بالخير لمن ؟ « للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » . والحق يعلم عن عباده أنهم يلتفتون إلى أبنائهم وقد يهملون الوالدين ، لأن الناس تنظر إلى الآباء والأمهات كمودعين للحياة ، على الرغم من أن الوالدين هما سبب إيجاد الأبناء فى الحياة ، لذلك يوصى الحق عباده المؤمنين بأن يخصصوا نصيبا من الخير للآباء والأمهات وأيضاً للأقارب . وهو سبحانه يريد أن يحمى ضعيفين هما : الوالدان والأقرباء .

وقد جاء هذا الحكم قبل تشريع الميراث ، فالناس قبل تشريع الميراث كانوا يعطون كل ما يملكون لأولادهم ، فأراد الله أن يخرجهم من إعطاء أولادهم كل شيء وحرمان الوالدين والأقربين . وقد حدد الله من بعد ذلك نصيب الوالدين فى الميراث ، أما الأقربون فقد ترك الحق لعباده تقرير أمرهم فى الوصية . وقد يكون الوالدان من الكفار ، لذلك لا يرثان من الابن ، ولكن الحق يقول :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة لقمان)

إن الحق يذكر عباده بفضله عليهم ، وأيضاً بفضل الوالدين ، ولكن إن كان الوالدان مشركين بالله فلا طاعة لهما فى هذا الشرك ، ولكن هناك الأمر بمصاحبتهما فى الحياة بالمعروف واتباع طريق المؤمنين الحاملين للمنهج الحق . لذلك فالإنسان المؤمن يستطيع أن يوصى بشىء من الخير فى وصيته للأبوين حتى ولو كانا من الكافرين ، ونحن نعرف أن حدود الوصية هى ثلث ما يملكه الإنسان والباقى للميراث الشرعى . أما إذا كانا من المؤمنين فنحن نتبع الحديث النبوى الكريم : « لا وصية لوارث »[١] .

وفى الوصية يدخل إذن الأقرباء الضعفاء غير الوارثين ، هذا هو المقصود من الاستطراق الاجتماعى . والحق حين ينبه عباده إلى الوصية فى أثناء الحياة بالأقربين الضعفاء ، يريد أن يدرك العباد أن عليهم مسئولية تجاه هؤلاء . ومن الخير أن يعمل الإنسان فى الحياة ويضرب فى الأرض ويسعى للرزق الحلال ويترك ورثته أغنياء بدلاً من أن يكونوا عالة على أحد .

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : « جاء النبى صلى الله عليه وسلم يعودنى ، وأنا بمكة ، قال : يرحم الله بن عفراء ، قلت : يا رسول الله أوصى بمالى كله ؟ قال : لا.قلت : فالشطر ؟ قال : لا . قلت الثلث ؟ قال : فالثلث ، والثلث كثير ، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس »[٢] . وإذا رزق الله الإنسان بالعمل خيراً كثيراً فإياك أيها الإنسان أن تقصر هذا الخير على من يرثك .

لماذا ؟ لأنك إن قصرت شيئاً على من يرثك فقد تُصادف فى حياتك من لا يرث وله شبهة القربى منك ، وهو فى حاجة إلى من يساعده على أمر معاشه فإذا لم تساعده يحقد عليك وعلى كل نعمة وهبها الله لك ، ولكن حين يعلم هذا القريب أن النعمة التى وهبها الله لك قد يناله منها شىء ولو بالوصية وليس بالتقنين الإرثى هذا القريب يملأه الفرح بالنعمة التى وهبها الله لك .

---

(١) رواه البيهقى فى سننه والدارقطنى عن جابر .
(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد والنسائى .

ولذلك قال الحق :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

(من سورة البقرة)

إن الحق يريد أن يلفت العباد إلى الأقرباء غير الوارثين بعد أن أدخل الآباء والأمهات فى الميراث . إن الإنسان حين يكون قريباً لميت ترك خيراً ، وخص الميت هذا القريب ببعض من الخير فى الوصية ، هذا القريب تمتلىء بالخير نفسه فيتعلم ألا يحبس الخير عن الضعفاء ، وهكذا يستطرق الحب وتقوم وشائج المودة .

والحق يفترض ـ وهو الأعلم بنفوس عباده ـ أن الموصى قد لا يكون على حق والوارث قد يكون على حق ، لذلك احتاط التشريع لهذه الحالة ؛ لأن الموصَى له حين يأخذ حظه من الوصية سينقص من نصيب الوارث ، ولذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعصم الأطراف كلها ، إنه يحمى الذى وصى ، والموصى له ، والوارث ومن هنا يقول الحق :

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ ﴾

ونحن نعرف أنه فى زمن نزول القرآن كانت الوصية شفاهة ، ولم تكن الكتابة منتشرة ، ولذلك أتى الحق بالجانب المشترك فى الموصى والموصى له والوارث وهو جانب القول ؛ فقد كان القول هو الأداة الواضحة فى ذلك الزمن القديم ، ولم تكن هناك وسائل معاصرة كالشهر العقارى لتوثيق الوصية ، لذلك كان تبديل وصية الميت

إثما على الذى يُبدل فيها .

إن الموصى قد برئت ذمته ، أما ذمة الموصى له والوارث فهى التى تستحق أن تنتبه إلى أن الله يعلم خفايا الصدور وهو السميع العليم . ويريد الحق أن يصلح العلاقة بين الوارث والموصى له ، لذلك يقول الحق :

﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾

إن الحق يريد العدل للجميع فإذا كانت الوصية زائغة عن العدل وعن الصراط المستقيم وكان فيها حرمان للفقير وزيادة فى ثراء الغنى أو ترك للأقربين ، فهذا ضياع للاستطراق الذى أراده الله ، فإذا جاء من يسعى فى سبيل الخير ليرد الوصية للصواب فلا إثم عليه فى التغيير الذى يحدثه فى الوصية ليبدلها على الوجه الصحيح لها الذى يرتضيه الله ؛ لأن الله غفور رحيم .

وقد يخاف الإنسان من صاحب الوصية أن يكون جنفاً ، والجنف يفسر بأنه الحيف والجور ، وقد يخلق الله الإنسان بجنف أى على هيئة يكون جانب منه أوطى من الجانب الآخر ، ونحن نعرف من علماء التشريح أن كل نصف فى الإنسان مختلف عن النصف الآخر وقد يكون ذلك واضحا فى بعض الخلق ، وقد لا يكون واضحا إلا للمدقق الفاحص .

والإنسان قد لا يكون له خيار فى أن يكون أجنف ، ولكن الإثم يأتى باختيار الإنسان ـ أى أن يعلم الإنسان الذنب ومع ذلك يرتكبه ـ إذن فمن خاف من موص جنفاً أى حيفاً وظلماً من غير تعمد فهذا أمر لا خيار للموصى فيه ، فإصلاح ذلك الحيف والظلم فيه خير للموصى . أما إذا كان صاحب الوصية قد تعمد أن يكون آثما

فإصلاح ذلك الإثم أمر واجب . وهذه هى دقة التشريع القرآنى الذى يشحذ كل ملكات الإنسان لتتلقى العدل الكامل .

والحق عالج قضية التشريع للبشر فى أمر القصاص باستثماره كل ملكات الخير فى الإنسان حين قال : « فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف » . إنه ليس تشريعا جافاً كتشريع البشر . إنه تشريع من الخالق الرحيم العليم بخبايا البشر . ويستثير الحق فى البشر كل نوازع الخير ، ويعالج كذلك قضية تبديل الوصية التى وصى بها الميت بنفسه ، فمن خالف الوصية التى أقيمت على عدالة فله عقاب .

أما الذى يتدخل لإصلاح أمر الوصية بما يحقق النجاة للميت من الجنف أى الحيف غير المقصود ولكنه يسبب ألماً ، أو يصلح من أمر وصية فيها إثم فهذا أمر يريده الله ولا إثم فيه ويحقق الله به المغفرة والرحمة . وهكذا يعلمنا الحق أن الذى يسمع أو يقرأ وصية فلا بد أن يقيسها على منطق الحق والعدل وتشريع الله ، فإن كان فيه مخالفة فلا بد أن يراجع صاحبها . ولنا أن نلحظ أن الحق قد عبر عن إحساس الإنسان بالخوف من وقوع الظلم بغير قصد أو بقصد حين قال : « فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم » .

إن كلمة « خاف » عندما تأتى فى هذا الموضع تدل على الوحدة الإيمانية فى نفوس المسلمين . إن المؤمن الذى يتصدى لإصلاح من هذا النوع قد يكون غير وارث ، ولا هو من الموصى لهم ، ولا هو الموصى ، إنما هو مجرد شاهد ، وهذه الشهادة تجعله يسعى إلى التكافل الإيمانى ؛ فكل قضية تمس المؤمن إنما تمس كل المؤمنين ، فإن حدث جنف فهذا يثير الخوف فى المؤمن لأن نتيجته قد تصيب غيره من المؤمنين ولو بغير قصد ، وهكذا نرى الوحدة الإيمانية . إن الإيمان يمزج المؤمنين بعضهم ببعض حتى يصيروا كالجسد الواحد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

ولهذا فعندما يتدخل المؤمن الذى لا مصلحة مباشرة له فى أمر الإرث أو الوصية ليصلح من هذا الأمر فإن الحق يثيبه بخير الجزاء .

والحق سبحانه قال : « فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم » ، وهذا القول يلفتنا إلى أن الإنسان إذا ما عزم على اتخاذ أمر فى مسألة الوصية فعليه أن يستشير من حوله ، وأن يستقبل كل مشورة من أهل العلم والحكمة ، وذلك حتى لا تنشأ الضغائن بعد أن يبرم أمر الوصية إبراماً نهائياً . أى بعد وفاته ، والحق قد وضع الاحتياطات اللازمة لإصلاح أمر الوصية إن جاء بها ما يورث المشاكل ؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المؤمنون فى وحدة إيمانية ، لذلك فلابد من معالجة الانحراف بالوقاية منه وقبل أن يقع . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا لو أننا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوْا ونجوْا جميعا »[1].

والحديث الشريف يضرب المثل على ضرورة التآزر والتواصى بين المؤمنين حماية لهم . فهؤلاء قوم اقتسموا سفينة بالقرعة ، والاستهام هو قرعة لا هوى لها ، وسكن بعضهم أسفل السفينة حسب ما جاء من نتيجة الاستهام ، وسكن بعضهم أعلى السفينة . لكن الذين سكنوا أسفل السفينة أرادوا بعضا من الماء ، واقترح بعضهم أن يخرقوا السفينة للحصول على الماء ، وبرروا ذلك بأن مثل هذا الأمر لن يؤذى من يسكنون فى النصف الأعلى من السفينة ، ولو أنهم فعلوا ذلك ، ولم يمنعهم الذين يسكنون فى النصف الأعلى من السفينة لغرقوا جميعا ، لكن لو تدخل الذين يسكنون فى النصف الأعلى من السفينة لمنعوا الغرق ، وكذلك حدود الله ، فعلى المؤمنين أن يتكاتفوا بالتواصى فى تطبيقها ، فلا يقولن أحد : « إن ما يحدث من الآخرين لا شأن لى به » لأن أمر المسلمين يهم كل مسلم ، ولذلك جاءت آية قال فيها سيدنا أبو بكر رضى الله عنه : « هناك آية تقرأونها على غير وجهها » أى تفهمونها على غير معناها . والآية هى قول الحق :

(١) رواه البخارى والترمذى ورواه أحمد فى مسنده عن النعمان بن بشير .

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ويقول شيخنا « حسنين مخلوف » مفتى الديار المصرية الأسبق فى شرح هذه الآية : أى احذروا ابتلاء الله فى محن قد تنزل بكم ، تعم المسيء وغيرهم ، كالبلاء والقحط والغلاء ، وتسلط الجبابرة وغير ذلك ، والمراد تحذير من الذنوب التى هى أسباب الابتلاء ، كإقرار المنكرات والبدع والرضا بها ، والمداهنة فى الأمر بالمعروف ، وافتراق الكلمة فى الحق ، وتعطيل الحدود ، وفشو المعاصى ، ونحو ذلك . وفيما رواه البخارى : عندما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويل للعرب من شر قد اقترب . . . » فقيل له : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث »[1] .

إذن فلا يعتقد مسلم أنه غير مسئول عن الفساد الذى يستشرى فى المجتمع ، بل عليه أن يحذر وأن ينبه . ولذلك نجد أن حكمة الحق قد فرضت الدية على العاقلة ، أى على أهل القاتل ، لأنهم قد يرون هذا القاتل وهو يمارس الفساد ابتداء ، فلم يردعه أحد منهم ، لكنهم لو ضربوا على يده من البداية لما جاءهم الغرم بدفع الدية ، لذلك فعندما تسمع قول الله عز وجل : « فمن خاف من موص جنفاً » إياك أن تقول : لا شأن لى بهذا الأمر لا ، إن الأمر يخصك وعليك أن تحاول الإصلاح بين الموصى له ، وبين الورثة . وقوله الحق : « فلا إثم عليه » يعنى عدم إدخاله فى دائرة الذين يبدلون القول والتى تناولناها بالخواطر قبل هذه الآية ، بل لك ثواب على تدخلك ؛ فأنت لم تبدل حقا بباطل ، بل تزحزح باطلاً لتؤسس حقاً ، وبذلك تُرَطِّبُ قلب الوارث على ما نقص منه ، وتقيم ميزان العدل بالنصيحة ، وتسخى نفسه ليقبل الوصية بعد تعديلها بما يرضى شريعة الله . إن الله يريد إقامة ميزان العدل وأن يتأكد الاستطراق الصفائى بين المؤمنين فلا تورث الوصية شروراً .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى الفتن .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

والحق سبحانه يبدأ هذه الآية الكريمة بترقيق الحكم الصادر بالتكليف القادم وهو الصيام فكأنه يقول : « يا من آمنتم بى واحببتمونى لقد كتبت عليكم الصيام » . وعندما يأتى الحكم ممن آمنت به فأنت تثق أنه يخصك بتكليف تأتى منه فائدة لك . وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - هب أنك تخاطب ابنك فى أمر فيه مشقة ، لكن نتائجه مفيدة ، فأنت لا تقول له : « يا ابنى افعل كذا » لكنك تقول له : « يا بُنَىَّ افعل كذا » وكأنك تقول له : « يا صغيرى لا تأخذ العمل الذى أكلفك به بما فيه من مشقة بمقاييس عقلك غير الناضج ، ولكن خذ هذا التكليف بمقاييس عقل وتجربة والدك » .

والمؤمنون يأخذون خطاب الحق لهم بـ « يا أيها الذين آمنوا » بمقياس المحبة لكل ما يأتى منه سبحانه من تكليف حتى وإن كان فيه مشقة ، والمؤمنون بقبولهم للإيمان إنما يكونون مع الحق فى التعاقد الإيمانى ، وهو سبحانه لم يكتب الصيام على من لا يؤمن به ؛ لأنه لا يدخل فى دائرة التعاقد الإيمانى وسيلقى سعيرا . والصيام هو لون من الإمساك ؛ لأن معنى « صام » هو « أمسك » والحق يقول :

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة مريم)

وهذا إمساك عن الكلام . إذن فالصوم : معناه الإمساك ، لكن الصوم التشريعى يعنى الصوم عن شهوتى البطن والفرج من الفجر وحتى الغروب . ومبدأ

الصوم لا يختلف من زمن إلى آخر ، فقد كان الصيام الركن التعبدى موجودا فى الديانات السابقة على الإسلام ، لكنه كان إما إمساكا مطلقا عن الطعام ، وإما إمساكا عن ألوان معينة من الطعام كصيام النصارى . فالصيام إذن هو منهج لتربية الإنسان فى الأديان ، وإن اختلفت الأيام عددا ، وإن اختلفت كيفية الصوم ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : « لعلكم تتقون » . ونعرف أن معنى التقوى هو أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية ، وأن نتقى بطش الله ، ونتقى النار وهى من آثار صفات الجلال . وقوله الحق : « لعلكم تتقون » أى أن نهذب ونشذب سلوكنا فنبتعد عن المعاصى . والمعاصى فى النفس إنما تنشأ من شره ماديتها إلى أمر ما . والصيام كما تعلم يضعف شرّة المادية وحدتها وتسلطها فى الجسد . ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم للشباب المراهق وغيره :

« يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[1] .

وكأن الصوم يشذب شرّة المادية فى الجسم الشاب . وإن تقليل الطعام يعنى تقليل وقود المادة ، فيقل السعار الذى يدفع الإنسان لارتكاب المعاصى . والصيام فى رمضان يعطى الإنسان الاستقامة لمدة شهر ، ويلحظ الإنسان حلاوة الاستقامة فيستمر بها بعد رمضان . والحق لا يطلب منك الاستقامة فى رمضان فقط ، إنما هو سبحانه قد اصطفى رمضان كزمن تتدرب فيه على الاستقامة لتشيع من بعد ذلك فى كل حياتك ؛ لأن اصطفاء الله لزمان أو اصطفاء الله لمكان أو لإنسان ليس لتدليل الزمان ، ولا لتدليل المكان ، ولا لتدليل الإنسان ، وإنما يريد الله من اصطفائه لرسول أن يشيع أثر اصطفاء الرسول فى كل الناس . ولذلك نجد تاريخ الرسل مليئا بالمشقة والتعب ، وهذا دليل على أن مشقة الرسالة يتحملها الرسول وتعبها يقع عليه هو . فالله لم يصطفه ليدلله ، وإنما اصطفاه ليجعله أسوة .

وكذلك يصطفى الله من الزمان أياما لا ليدللها على بقية الأزمنة ، ولكن لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يشيع اصطفاء هذا الزمان فى كل الأزمنة ، كاصطفائه لأيام

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه وأحمد والبيهقى .

رمضان ، والحق سبحانه وتعالى يصطفى الأمكنة ليشيع اصطفاؤها فى كل الأمكنة .

وعندما نسمع من يقول : « زرت مكة والمدينة وذقت حلاوة الشفافية والإشراق والتنوير ، ونسيت كل شيء » . إن من يقول ذلك يظن أنه يمدح المكان ، وينسى أن المكان يفرح عندما يشيع اصطفاؤه فى بقية الأمكنة ؛ فأنت إذا ذهبت إلى مكة لتزور البيت الحرام ، وإذا ذهبت إلى المدينة لتزور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلماذا لا تتذكر فى كل الأمكنة أن الله موجود فى كل الوجود ، وأن قيامك بأركان الإسلام وسلوك الإسلام هو تقرب من الله ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

صحيح إن تعبدك وأنت فى جوار بيت الله ، يتميز بالدقة وحسن النية . كأنك وأنت فى جوار بيت الله وفى حضرة رسول الله تستحى أن تفعل معصية . وساعة تسمع « الله أكبر » تنهض للصلاة وتخشع ، ولا تؤذى أحداً ، إذن لماذا لا يشيع هذا السلوك منك فى كل وقت وفى كل مكان ؟ إنك تستطيع أن تستحضر النية التعبدية فى أى مكان ، وستجد الصفاء النفسى العالى .

إذن فحين يصطفى الله زماناً أو مكاناً أو يصطفى إنساناً إنما يشاء الحق سبحانه وتعالى أن يشيع اصطفاء الإنسان فى كل الناس ، واصطفاء المكان فى كل الأمكنة ، واصطفاء الزمان فى كل الأزمنة ، ولذلك أتعجب عندما أجد الناس تستقبل رمضان بالتسبيح وبآيات القرآن وبعد أن ينتهى رمضان ينسون ذلك . وأقول هل جاء رمضان ليحرس لنا الدين ، أم أن رمضان يجيء ليدربنا على أن نعيش بخلق الصفاء فى كل الأزمنة ؟

وقوله الحق : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » يدلنا على أن المسلمين ليسوا بدعاً فى مسألة الصوم ، بل سبقهم أناس من قبل إلى الصيام وإن اختلفت شكلية الصوم . وساعة يقول الحق : « كتب عليكم الصيام » فهذا تقرير للمبدأ ، مبدأ الصوم ، ويُفصِّلُ الحق سبحانه المبدأ من بعد ذلك فيقول :

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾

وكلمة « أياماً » تدل على الزمن وتأتى مجملة ، وقوله الحق عن تلك الأيام : إنها « معدودات » يعنى أنها أيام قليلة ومعروفة . ومن بعد ذلك يوضح الحق لنا مدة الصيام فيقول :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

إذن،فمدة الصيام هى شهر رمضان ، ولأنه سبحانه العليم بالضرورات التى تطرأ

على هذا التكليف فهو يشرع لهذه الضرورات ، وتشريع الله لرخص الضرورة إعلام لنا بأنه لا يصح مطلقاً لأى إنسان أن يخرج عن إطار الضرورة التى شرعها الله ، فبعض من الذين يتفلسفون من السطحيين يحبون أن يزينوا لأنفسهم الضرورات التى تبيح لهم الخروج عن شرع الله ، ويقول الواحد منهم :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

ونقول : إنك تفهم وتحدد الوُسع على قدر عقلك ثم تقيس التكليف عليه ، برغم أن الذى خلقك هو الذى يُكلف ويعلم أنك تَسَعُ التكليف ، وهو سبحانه لا يكلف إلا بما فى وسعك ؛ بدليل أن المشرع سبحانه يعطى الرخصة عندما يكون التكليف ليس فى الوسع . ولنر رحمة الحق وهو يقول : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » ، وكلمة « مريضاً » كلمة عامة ، وأنت فيها حجة على نفسك وبأمر طبيب مسلم حاذق يقول لك : « إن صمت فأنت تتعب » والمرض مشقته مزمنة فى بعض الأحيان ، ولذلك تلزم الفدية بإطعام مسكين .

وكذلك يرخص الله لك عندما تكون « على سفر » . وكلمة « سفر » هذه مأخوذة من المادة التى تفيد الظهور والانكشاف ، ومثال ذلك قولنا : « أسفر الصبح » . وكلمة « سفر » تفيد الانتقال من مكان تقيم فيه إلى مكان جديد ، وكأنك كلما مشيت خطوة تنكشف لك أشياء جديدة ، والمكان الذى تنتقل إليه هو جديد بالنسبة لك ، حتى ولو كنت قد اعتدت أن تسافر إليه ؛ لأنه يصير فى كل مرة جديدا لما ينشأ عنه من ظروف عدم استقرار فى الزمن ، صحيح أن شيئاً من المبانى والشوارع لم يتغير ، ولكن الذى يتغير هو الظروف التى تقابلها ، وصحيح أن ظروف السفر فى زماننا قد اختلفت عن السفر من قديم الزمان .

إن المشقة فى الانتقال قديماً كانت عالية ، ولكن لنقارن سفر الأمس مع سفر اليوم من ناحية الإقامة . وستجد أن سفرَ الآن بإقامة الآن فيه مشقة ، ومن العجب أن الذين يناقشون هذه الرخصة يناقشونها ليمنعوا الرخصة ، ونقول لهم : اعلموا أن

تشريع الله للرخص ينقلها إلى حكم شرعى مطلوب ؛ وفى ذلك يروى لنا جابر ابن عبدالله رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فرأى زحامًا ورجلاً قد ظلّل عليه فقال : « ما هذا » فقالوا : صائم فقال : « ليس من البر الصوم فى السفر »[1] .

وعندما تقرأ النص القرآنى تجده يقول : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر ، فعدة من أيام أخر » أى أن مجرد وجود فى السفر يقتضى الفطر والقضاء فى أيام أخر ، ومعنى ذلك أن الله لا يقبل منك الصيام ، صحيح أنه سبحانه لم يقل لك : « افطر » ولكن مجرد أن تكون مريضاً مرضاً مؤقتا أو مسافراً فعليك الصوم فى عدة أيام أخر وأنت لن تشرع لنفسك .

ولنا فى رسول الله أسوة حسنة فقد نهى عن صوم يوم عيد الفطر ، لأن عيد الفطر سُمى كذلك ، لأنه يحقق بهجة المشاركة بنهاية الصوم واجتياز الاختبار ، فلا يصح فيه الصوم ، والصوم فى أول أيام العيد إثم ، لكن الصوم فى ثانى أيام العيد جائز ، لحديث محن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن صيام يومين : يوم الفطر ويوم الأضحى »[2] .

وقد يقول قائل : ولكن الصيام فى رمضان يختلف عن الصوم فى أيام أخر ؛ لأن رمضان هو الشهر الذى أنزل فيه القرآن . وأقول : إن الصوم هو الذى يتشرف بمجيئه فى شهر القرآن ، ثم إن الذى أنزل القرآن وفرض الصوم فى رمضان هو سبحانه الذى وَهَب الترخيص بالفطر للمريض أو المسافر ونقله إلى أيام أخر فى غير رمضان ، وسبحانه لا يعجز عن أن يهب الأيام الأخر نفسها التجليات الصفائية التى يهبها للعبد الصائم فى رمضان . إن الحق سبحانه حين شرع الصوم فى رمضان إنما أراد أن يشيع الزمن الضيق ـ زمن رمضان ـ فى الزمن المتسع وهو مدار العام . ونحن نصوم رمضان فى الصيف ونصومه فى الشتاء وفى الخريف والربيع ، إذن فرمضان يمر على كل العام .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الصوم .

(٢) رواه مسلم .

ويقول الحق : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » والطوق هو القدرة ، فيطيقونه أى يدخل فى قدرتهم وفى قولهم ، والفدية هى إطعام مسكين .

ويتساءل الإنسان : كيف يطيق الإنسان الصوم ثم يؤذن له بالفطر مقابل فدية هى إطعام مسكين ؟ وأقول : إن هذه الآية دلت على أن فريضة الصوم قد جاءت بتدرج ، كما تدرج الحق فى قضية الميراث ، فجعل الأمر بالوصية ، وبعد ذلك نقلها إلى الثابت بالتوريث ؛ كذلك أراد الله أن يُخرج أمة محمد صلى الله عليه وسلم من دائرة أنهم لا يصومون إلى أن يصوموا صياماً يُخيّرهُم فيه لأنهم كانوا لا يصومون ثم جاء الأمر بعد ذلك بصيام لا خيار فيه ، فكأن الصوم قد فُرض أولاً باختيار ، وبعد أن اعتاد المسلمون وألفُوا الصوم جاء القول الحق: « فمَنْ شهد منكم الشهر فليصمه » وفى هذه الآية لم يذكر الحق الفدية أو غيرها . إذن كانت فرضية الصوم أولاً اختيارية بقوله الحق : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » ، ثم جاء القرار الارتقائى ، فصار الصوم فريضة محددة المدة وهى شهر رمضان « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمَنْ شهد منكم الشهر فليصمه » وبذلك انتهت مسألة الفدية بالنسبة لـمَنْ يطيق الصوم ، أما الذى لا يطيق أصلاً بأن يكون مريضاً أو شيخاً ، فإن قال الأطباء المسلمون : إن هذا مرض « لا يُرجى شفاؤه » نقول له : أنت لن تصوم أياماً أخر وعليك أن تفدى .

لقد جاء تشريع الصوم تدريجياً ككثير من التشريعات التى تتعلق بنقل المكلفين من إلف العادات ، كالخمر مثلاً والميسر والميراث ، وهذه أمور أراد الله أن يتدرج فيها. ويقول قائل : ما دام فرض الصيام كان اختيارياً فلماذا قال الحق بعد الحديث عن الفدية « فمَنْ تطوع خيراً فهو خير له » ؟

وأقول : عندما كان الصوم اختيارياً كان لابد أيضاً من فتح باب الخير والاجتهاد فيه ، فمَنْ صام وأطعم مسكيناً فهذا أمر مقبول منه ، ومَنْ صام وأطعم مسكينين ، فذاك أمر أكثر قبولاً . ومَنْ يدخل مع الله من غير حساب يؤتيه الله من غير حساب ، ومَنْ يدخل على الله بحساب ، يعطيه الحق بحساب ، وقول الحق : « وأن تصوموا خير لكم » هو خطوة فى الطريق لتأكيد فرضية الصيام ، وقد تأكد ذلك الفرض بقوله الحق : « فمَنْ شهد منكم الشهر فليصمه » ولم يأت فى هذه الآية بقوله : « وأن

تصوموا خير لكم » لأن المسألة قد انتقلت من الاختيار إلى الفرض .

إذن فالصيام هو منهج لتربية الإنسان ، وكان موجوداً قبل أن يبعث الحق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم دخل الصوم على المسلمين اختيارياً فى البداية ، ثم فريضة من بعد ذلك . وقد شرع الله الصوم فى الإسلام بداية بأيام معدودة ثم شرح لنا الأيام المعدودة بشهر رمضان .

والذى يطمئن إليه خاطرى أن الله بدأ مشروعية الصوم بالأيام المعدودة ، ثلاثة أيام من كل شهر وهو اليوم العاشر والعشرون ، والثلاثون من أيام الشهر ، كانت تلك هى الأيام المعدودة التى شرع الله فيها أن نصوم ؛ وكان الإنسان مخيراً فى تلك الأيام المعدودة : إن كان مطيقا للصوم أن يصوم أو أن يفتدى ، أما حين شرع الله الصوم فى رمضان فقد أصبح الصوم فريضة تعبدية وركنا من أركان الإسلام ، وبعد ذلك جاءنا الاستثناء للمريض والمسافر .

إذن لنا أن نلحظ أن الصوم فى الإسلام كان على مرحلتين : المرحلة الأولى : أن الله سبحانه وتعالى شرع صيام أيام معدودة ، وقد شرحنا أحكامها ، والمرحلة الثانية هى تشريع الصوم فى زمن محدود . . شهر رمضان ، والعلماء الذين ذهبوا إلى جواز رفض إفطار المريض وإفطار المسافر لأنهم لم يرغبوا أن يردوا حكمة الله فى التشريع ، أقول لهم : إن الحق سبحانه وتعالى حين يرخص لابد أن تكون له حكمة أعلى من مستوى تفكيرنا ، وأن الذى يؤكد هذا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « فمن كان منكم مريضا أو على سفر » .

الحكم هنا هو الصوم عدة أيام أخر ، ولم يقل فمن أفطر فعليه عدة من أيام أخر ، أى أن صوم المريض والمسافر قد انتقل إلى وقت الإقامة بعد السفر ، والشفاء من المرض ، فالذين قالوا من العلماء : هى رخصة ، إن شاء الإنسان فعلها وإن شاء تركها ، لابد أن يقدر فى النص القرآنى « فمن كان منكم مريضا أو على سفر » ، فأفطر ، « فعدة من أيام أخر » . ونقول : ما لا يحتاج إلى تأويل فى النص أولى فى الفهم مما يحتاج إلى تأويل ، وليكن أدبنا فى التعبير ليس أدب ذوق ، بل أدب طاعة ؛ لأن الطاعة فوق الأدب .

إذن فالذين يقولون هذا لا يلحظون أن الله يريد أن يخفف عنا ، ثم ما الذى يمنعنا أن نفهم أن الحق سبحانه وتعالى أراد للمريض وللمسافر رخصة واضحة ، فجعل صيام أى منها فى عدة من الأيام الأخر . فإن صام فى رمضان وهو مريض أو على سفر فليس له صيام ، أى أن صيامه لا يعتد به ولا يقبل منه ، وهذا ما أرتاح إليه ، ولكن علينا أن ندخل فى اعتبارنا أن المراد من المرض والسفر هنا ، هو ما يخرج مجموع ملكات الإنسان عن سويّتها .

وما معنى كلمة « شهر » التى جاءت فى قوله : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه »؟ . إن كلمة « شهر » مأخوذة من الإعلام والإظهار ، وما زلنا نستخدمها فى الصفقات فنقول مثلا : لقد سجلنا البيع فى « الشهر العقارى » أى نحن نُعْلِمُ الشهر العقارى بوجود صفقة ، حتى لا يأتى بعد ذلك وجود صفقة على صفقة ، فكلمة « شهر » معناها الإعلام والإظهار ، وسُميت الفترة الزمنية « شهراً » لماذا ؟ لأن لها علامة تظهرها ، ونحن نعرف أننا لا نستطيع أن نعرف الشهر عن طريق الشمس ؛ فالشمس هى سمة لمعرفة تحديد اليوم ، فاليوم من مشرق الشمس إلى مشرق آخر وله ليل ونهار .

ولكن الشمس ليست فيها علامة مميزة سطحية ظاهرة واضحة تحدد لنا بدء الشهر ، إنما القمر هو الذى يحدد تلك السمة والعلامة بالهلال الذى يأتى فى أول الشهر ، ويظهر هكذا كالعرجون القديم ، إذن فالهلال جاء لتمييز الشهر ، والشمس لتمييز النهار ، ونحن نحتاج لهما معا فى تحديد الزمن .

إن الحق سبحانه وتعالى يربط الأعمال العبادية بآيات كونية ظاهرة التى هى الهلال ، وبعد ذلك نأخذ من الشمس اليوم فقط ؛ لأن الهلال لا يعطيك اليوم ، فكأن ظهور الهلال على شكل خاص بعدما يأتى المحاق وينتهى ، فميلاد الهلال بداية إعلام وإعلان وإظهار أن الشهر قد بدأ ، ولذلك تبدأ العبادات منذ الليلة الأولى فى رمضان ؛ لأن العلامة ـ الهلال ـ مرتبطة بالليل ، فنحن نستطلع الهلال فى المغرب ، فإن رأيناه نقل شهر رمضان بدأ . ولم تختلف هذه المسألة لأن النهار لا يسبق الليل ، إلا فى عبادة واحدة وهى الوقوف بعرفة ، فالليل الذى يجىء بعدها هو الملحق بيوم عرفة .

وكلمة « رمضان » مأخوذة من مادة (الراء ـ والميم ـ والضاد) ، وكلها تدل على

الحرارة وتدل على القيظ » ورمض الإنسان » أى حرّ جوفه من شدة العطش ، و« الرمضاء » أى الرمل الحار ، وعندما يقال : « رمضت الماشية » أى أن الحر أصاب خفها فلم تعد تقوى أن تضع رجلها على الأرض ، إذن فرمضان مأخوذ من الحر ومن القيظ ، وكأن الناس حينها أرادوا أن يضعوا أسماء للشهور جاءت التسمية لرمضان فى وقت كان حاراً ، فسموه رمضان كما أنهم ساعة سموا مثلا « ربيعاً الأول وربيعا الآخر » كان الزمن متفقاً مع وجود الربيع ، وعندما سموا جمادى الأولى وجمادى الآخرة » كان الماء يَجْمُد فى هذه الأيام .

فكأنهم لاحظوا الأوصاف فى الشهور ساعة التسمية ، ثم دار الزمن العربى الخاص المحدد بالشهور القمرية فى الزمن العام للشمس . فجاء رمضان فى صيف ، وجاء فى خريف ، لكن ساعة التسمية كان الوقت حاراً .

وهب أن إنسانا جاءه ولد جميل الشكل ، فسماه « جميلاً » . وبعد ذلك مرض والعياذ بالله بمرض الجدرى فشوه وجهه ، فيكون الاسم قد لوحظ ساعة التسمية ، وإن طرأ عليه فيها بعد ذلك ما يناقض هذه التسمية ، وكأن الحق سبحانه وتعالى حينها هيأ للعقول البشرية الواضعة للألفاظ أن يضعوا لهذا الشهر ذلك الاسم ، دل على المشقة التى تعترى الصائم فى شهر رمضان ، وبعد ذلك يعطى له سبحانه منزلة تؤكد لماذا سُمى ، إنه الشهر الذى أنزل فيه القرآن ، والقرآن إنما جاء منهج هداية للقيم ، والصوم امتناع عن الاقتيات ، فمنزلة الشهر الكريم أنه يربى البدن ويربى النفس ، فناسب أن يوجد التشريع فى تربية البدن وتربية القيم مع الزمن الذى جاء فيه القرآن بالقيم ، « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » . وإذا سمعت « أنزل فيه القرآن » فافهم أن هناك كلمات « أنزل » و« نَزَّلَ » و« نزل » ، فإذا سمعت كلمة « أنزل » تجدها منسوبة إلى الله دائما :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ ﴾

(سورة القدر)

أما فى كلمة « نَزَلَ » فهو سبحانه يقول :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾

(سورة الشعراء)

وقال الحق :

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَٰئِكَةُ ﴾

(من الآية ٤ سورة القدر)

إذن فكلمة « أنزل » مقصورة على الله ، إنما كلمة « نَزَّلَ » تأتى من الملائكة ، و« نَزَلَ » تأتى من الروح الأمين الذى هو « جبريل » ، فكأن كلمة « أنزل » بهمزة التعدية ، عدت القرآن من وجوده مسطوراً فى اللوح المحفوظ إلى أن يبرز إلى الوجود الإنسانى ليباشر مهمته .

وكلمة « نَزَلَ » و« نَزَّلَ » نفهمهما أن الحق أنزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا مناسباً للأحداث ومناسباً للظروف ، فكان الإنزال فى رمضان جاء مرة واحدة ، والناس الذين يهاجموننا يقولون كيف تقولون : إن رمضان أنزل فيه القرآن مع أنكم تشيعون القرآن فى كل زمن ، فينزل هنا وينزل هناك وقد نزل فى مدة الرسالة المحمدية ؟

نقول لهم : نحن لم نقل إنه « نزل » ولكننا قلنا « أنزل » ، فأنزل : تعدى من العِلم الأعلى إلى أن يباشر مهمته فى الوجود . وحين يباشر مهمته فى الوجود ينزل منه « النَّجم » - يعنى القسط القرآنى - موافقا للحدث الأرضى ليجىء الحكم وقت حاجتك ، فيستقر فى الأرض ، إنما لو جاءنا القرآن مكتملاً مرة واحدة فقد يجوز أن يكون عندنا الحكم ولا نعرفه ، لكن حينما لا يجىء الحكم إلا ساعة نحتاجه ، فهو يستقر فى نفوسنا .

وأضرب هذاالمثل - ولله المثل الأعلى - أنت مثلاً تريد أن تُجهز صيدلية للطوارىء فى المنزل ، وأنت تضع فيها كل ما يخص الطوارىء التى تتخيلها ، ومن الجائز أن يكون عندك الدواء لكنك لست فى حاجة له ، أما ساعة تحتاج الدواء وتذهب لتصرف تذكرة الطبيب من الصيدلية ، عندئذ لا يحدث لبس ولا اختلاط ، فكذلك حين يُريد الله حكماً من الأحكام ليعالج قضية من قضايا الوجود فهو لا ينتظر حتى ينزل فيه حكم من الملأ الأعلى من اللوح المحفوظ ، إنما الحكم موجود فى السماء الدنيا ، فيقول للملائكة : تنزلوا به ، وجبريل ينزل فى أى وقت شاء له الحق أن

ينزل من أوقات البعثة المحمدية ، أو الوقت الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يوجد فيه الحكم الذى يغطى قضية من القضايا .

إذن فحينما يوجد من يريد أن يشككنا نقول له : لا .
نحن نملك لغة عربية دقيقة ، وعندنا فرق بين « أنزل » و « نَزَّل » و« نزل » .
ولذلك فكلمة « نزل » تأتى للكتاب ، وتأتى للنازل بالكتاب يقول تعالى :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويقول سبحانه :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الاسراء)

وكان بعض من المشركين قد تساءلوا : لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ؟ . وانظر إلى الدقة فى الهيئة التى أراد الله بها نزول القرآن فقد قال الحق :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وعندما نتأمل قول الحق : « كذلك » فهى تعنى أنه سبحانه أنزل القرآن على الهيئة التى نزل بها لزوماً لتثبيت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ولو نزل مرة واحدة لكان تكليفاً واحداً ، وأحداث الدعوة شتى وكل لحظة تحتاج إلى تثبيت .
فحين يأتى الحدث ينزل نَجْمٌ قرآنى فيعطى به الحق تثبيتا للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأضرب مثلا بسيطا ـ ولله المثل الأعلى والمنزه عن كل تشبيه ـ أن ابناً لك يريد حلة

جديدة أتحضرها له مرة واحدة ، فتصادفه فرحة واحدة ، أم تحضر له فى يوم ربطة العنق واليوم الذى يليه تحضر له القميص الجديد ، ثم تحضر له « البدلة » ؟، إذن فكل شىء يأتى له وقع وفرحة .

والحق ينزل القرآن منجما لماذا ؟ « لنثبت به فؤادك » ومعنى « لنثبت به فؤادك » أى أنك ستتعرض لمنغصات شتى ، وهذه المنغصات الشتى كل منها يحتاج إلى تَرْبِيتٍ عليك وتهدئة لك ، فيأتى القسط القرآنى ليفعل ذلك وينير أمامك الطريق . « كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » أى لم نأت به مرة واحدة بل جعلناه مرتباً على حسب ما يقتضيه من أحداث . حتى يتم العمل بكل قسط ، ويهضمه المؤمن ثم نأتى بقسط آخر . ولنلحظ دقة الحق فى قوله عن القرآن :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

إن الكفار لهم اعتراضات ، ويحتاجون إلى أمثلة ، فلو أنه نزل جملة واحدة لأهدرت هذه القضية ، وكذلك حين يسأل المؤمنون يقول القرآن : يسئلونك عن كذا وعن كذا ، ولو شاء الله أن يُنزل القرآن دفعة واحدة ، فكيف كان يغطى هذه المسألة ؟ فمادموا سوف يسألون فلينتظر حتى يسألوا ثم تأتى الإجابة بعد ذلك .

إذن فهذا هو معنى « أنزل » أى أنه أُنزل من اللوح المحفوظ ، ليباشر مهمته فى الوجود ، وبعد ذلك نزل به جبريل ، أو تتنزل به الملائكة على حسب الأحداث التى جاء القرآن ليغطيها .

ويقول الحق : « أُنزل فيه القرآن هدى للناس » . ونعرف أن كلمة « هدى » معناها : الشىء الموصل للغاية بأقصر طريق ، فحين تضع إشارات فى الطريق الملتبسة ، فمعنى ذلك أننا نريد للسالك أن يصل إلى الطريق بأيسر جهد ، و« هدى » تدل على علامات لنهتدى بها يضعها الخالق سبحانه ، لأنه لو تركها للخلق ليضعوها لاختلفت الأهواء ، وعلى فرض أننا سنسلم بأنهم لا هوى لهم ويلتمسون الحق ، وعقولهم ناضجة ، سنسلم بكل ذلك ، ونتركهم كى يضعوا المعالم ، ونتساءل : وماذا عن الذى يضع تلك العلامات ، وبماذا يهتدى ؟ .

إذن فلابد أن يوجد له هدى من قبل أن يكون له عقل يفكر به ، كما أن الذى يضع هذاالهدى لابد ألا ينتفع به ، وعلى ذلك فالله سبحانه أغنى الأغنياء عن الخلق ولن ينتفع بأى شيء من العباد ، أما البشر فلو وضعوا « هدى » فالواضع سينتفع به ، ورأينا ذلك رأى العين ؛ فالذى يريد أن يأخذ مال الأغنياء ويغتنى يخترع المذهب الشيوعى ، والذى يريد أن يمتص عرق الغير يضع مذهب الرأسمالية ، مذاهب نابعة من الهوى ، ولا يمكن أن يُبرأ أحد من فلاسفة المذاهب نفسه من الهوى : الرأسمالى يقنن فيميل لهوى نفسه ، الشيوعى يميل لنفسه ، ونحن نريد مَن يُشرع لنا دون أن ينتفع بما شرع ، ولا يوجد من تتطابق معه هذه المواصفات إلا الحق سبحانه وتعالى فهو الذى يشرع فقط ، وهو الذى يشرع لفائدة الخلق فقط .

والذى يدلك على ذلك أنك تجد تشريعات البشر تأتى لتنقض تشريعات أخرى ، لأن البشر على فرض أنهم عالمون فقد يغيب عنهم أشياء كثيرة ، برغم أن الذى يضع التشريع يحاول أن يضع أمامه كل التصورات المستقبلية ، ولذلك نجد التعديلات تجرى دائما على التشريعات البشرية ؛ لأن المشرع غاب عنه وقت التشريع حكم لم يكن فى باله ، وأحداث الحياة جاءت فلفتته إليه ، فيقول : التشريع فيه نقص ولم يعد مُلائماً ، نعدله .

إذن فنحن نريد فى من يضع الهدى والمنهج الذى يسير عليه الناس بجانب عدم الانتفاع بالمنهج لابد أيضا أن يكون عالما بكل الجزئيات التى قد يأتى بها المستقبل ، وهذا لا يتأتى إلا فى إله عليم حكيم ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

ستتبعون السبل ، هذا له هوى ، وهذا له هوى ، فتوجد القوانين الوضعية التى تبددنا كلنا فى الأرض ، لأننا نتبع أهواءنا التى تتغير ولا نتبع منهج من ليس له نفع فى هذه المسألة ، ولذلك أقول : افطنوا جيداً إلى أن الهدى الحق الذى لا أعترض عليه هو هدى الله ، « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » . والقرآن فى جملته « هدى » والفرقان هو أن يضع فارقاً فى أمور يلتبس فيها الحق بالباطل ، فيأتى التنزيل الحكيم ليفرق بين الحق والباطل .

ويقول الحق : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » ، وحين تجد تعقيباً على قضية فافهم أن من شهد منكم الشهر فليصمه ولابد أن تقدر من شهد الشهر فليصمه إن كان غير مريض ، وإن كان غير مسافر ، لابد من هذا مادام الحق قد جاء بالحكم .

و« شهد » هذه تنقسم قسمين : « فمن شهد » أي من حضر الشهر وأدركه وهو غير مريض وغير مسافر أي مقيم ، « ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . ونريد أن نفهم النص بعقلية من يستقبل الكلام من إله حكيم ، إن قول الله : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

تعقيب على ماذا ؟ تعقيب على أنه أعفى المريض وأعفى المسافر من الصيام ، فكأن الله يريد بكم اليسر ، فكأنك لو خالفت ذلك لأردت الله معسراً لا ميسراً والله لا يمكن أن يكون كذلك ، بل أنت الذى تكون معسراً على نفسك ، فإن كان الصوم له قداسة عندك ، ولا تريد أن تكون أسوة فلا تفطر أمام الناس ، والتزم بقول الله : « فعدة من أيام أخر » لأنك لو جنحت إلى ذلك لجعلت الحكم فى نطاق التعسير ، فنقول لك : لا ، إن الله يريد بك اليسر ، فهل أنت مع العبادة أم أنت مع المعبود ؟ أنت مع المعبود بطبيعة الإيمان .

ومثال آخر نجده فى حياتنا : هناك من يأتى ليؤذن ثم بعد الأذان يجهر بقول : « الصلاة والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله » يقول : إن هذا حب لرسول الله . لكن هل أنت تحب الرسول إلا بما شرع ؟ إنه قد قال : (إذا سمعتم النداء فقولوا مثلما يقول المؤذن ثم صلوا على)[1] فقد سمح الرسول صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن ولمن يسمع أن يصلى عليه فى السر ، لا أن يأتى بصوت الأذان الأصيل وبلهجة الأذان الأصيلة ونصلى على النبى ، لأن الناس قد يختلط عليها ، وقد يفهم بعضهم أن ذلك من أصول الأذان . إنى أقول لمن يفعل ذلك : يا أخى ، ألا توجد صلاة مقبولة على النبى إلا المجهور بها ؟ لا ، إن لك أن تصلى على النبى ، لكن فى سرك .

(١) هذا الحديث أخرجه الإمامان البخارى ومسلم ، وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى .

وكذلك إن جاء من يفطر فى رمضان لأنه مريض أو على سفر ، نقول له : استتر ، حتى لا تكون أسوة سيئة ؛ لأن الناس لا تعرف أنك مريض أو على سفر ، استتر كى لا يقول الناس : إن مسلماً أفطر . ويقول الحق : « ولتكملوا العدة » فمعناها كى لا تفوتكم أيام من الصيام .

انظروا إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله : « ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » . إن العبادة التى نفهم أن فيها مشقة هى الصيام وبعد ذلك تكبرون الله ؛ لأن الحق سبحانه عالم أن عبده حين ينصاع لحكم أراده الله وفيه مشقة عليه مثل الصوم ويتحمله ، وعندما يشعر بأنه قد انتهى منه إنه سبحانه عالم بأن العبد سيجد فى نفسه إشراقاً يستحق أن يشكر الله الذى كلفه بالصوم ووفقه إلى أدائه ؛ لأن معنى « ولتكبروا الله » يعنى أن تقول: « الله أكبر » وأن تشكره على العبادة التى كنت تعتقد أنها تضنيك ، لكنك وجدت فيها تجليات وإشراقات ، فتقول : الله أكبر من كل ذلك ، الله أكبر ؛ لأنه حين يمنعنى يعطينى ، وسبحانه يعطى حتى فى المنع ؛ فأنت تأخذ مقومات حياة ويعطيك فى رمضان ما هو أكثر من مقومات الحياة وهو الإشراقات التى تتجلى لك ، وتذوق حلاوة التكليف وإن كان قد فوت عليك الاستمتاع بنعمة فإنه أعطاك نعمة أكثر منها .

وبعد ذلك فالنسق القرآنى ليس نسقاً من صنع بشر ، فنحن نجد أن نسق البشر يقسم الكتاب أبواباً وفصولاً ومواد كلها مع بعضها ، ويُفصل كل باب بفصوله ومواده ، وبعد ذلك ينتقل لباب آخر ، لكن الله لا يريد الدين أبواباً ، وإنما يريد الدين وحدة متكاتفة فى بناء ذلك الإنسان ، فيأتى بعد قوله : « ولتكبروا الله » بـ « ولعلكم تشكرون » ومعنى ذلك أنكم سترون ما يجعلكم تنطقون بـ « الله أكبر » ؛ لأن الله أسدى إليكم جميلاً ، وساعة يوجد الصفاء بين « العابد » وهو الإنسان و« المعبود » وهو الرب ، ويثق العابد بأن المعبود لم يكلفه إلا بما يعود عليه بالخير ، هنا يحسن العبد ظنه بربه ، فيلجأ إليه فى كل شىء ، ويسأله عن كل شىء ، ولذلك جاء هنا قول الحق :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

ومادمت قد ذقت حلاوة ما أعطاك الحق من إشراقات صفائية فى الصيام فأنت ستتجه إلى شكره سبحانه ، وهذا يناسب أن يرد عليك الحق فيقول : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب » ونلحظ أن « إذا » جاءت ، ولم تأت « إن » فالحق يؤكد لك أنك بعدما ترى هذه الحلاوة ستشكر الله ؛ لأنه سبحانه يقول فى الحديث القدسى :

« ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين »[1] .

فمادام سبحانه سيجيب الدعوة ، وأنت قد تكون من العامة لا إمامة لك ، وكذلك لست مظلوماً ، إذن تبقى دعوة الصائم . وعندما تقرأ فى كتاب الله كلمة « سأل » ستجد أن مادة السؤال بالنسبة للقرآن وردت وفى جوابها « قل » .

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

وقوله :

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

(١) هذا الحديث أخرجه الترمذى وابن ماجة والإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة .